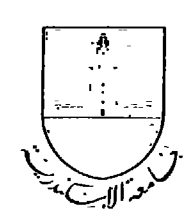


مصر وسورية في العصور القديمة

للأستاذ الدكتور

نجيب ميخائيل

الأستاذ بكلية الآداب

المحاضرة الأولى من المحاضرات العامة
في العام الجامعي ٥٧ / ١٩٥٨

مطبعة جامعة الإسكندرية

١٩٥٨

مصر وسورية في العصور القديمة

للأستاذ الدكتور
نجيب ميخائيل
الأستاذ بكلية الآداب

(١٨ مارس ١٩٥٨)



سيداتى ... سادتى

درجت جامعة الاسكندرية على سنة حميدة هى ايقاظ الوعى الثقافى بالمدينة عن طريق تنظيم سلسلة من المحاضرات العامة فى موسم ثقافى سنوى ؛ وقد علمت منذ ثلاثة أسابيع أن سلسلة هذا العام تتناول الدولة العربية المتحدة من زوايا مختلفة ، وأن حظى منها دراسة العلاقة بين مصر وسورية منذ أقدم العصور حتى قيام الاسلام والقضاء على الامبراطورية الساسانية والامبراطورية الرومانية بظهور دولة العرب فى أفق التاريخ .

وكان يجلس الى جانبى حين شُرِّفْتُ بذلك التكليف زميل من الأثريين المصريين ما لبث أن قال لى :

انى أشفق عليك أشد الاشفاق .

قلت : ولِمَ ؟

قال : ماذا تزمع أن تقول ؟

قلت : لا أدرى .

وكأنما أطمعه ذلك الرد فقال : نحن معشر الأثريين درجنا على الايمان بمصرنا الفرعونية نفخر بها ونتعصب لها ونحس بأن الدماء التى تجرى فى عروقنا مصرية خالصة ... علمنا ذلك أساتذتنا وقرأناه فيما قرأنا من كتب وطالعناه فيما رجعنا اليه من بحوث حتى غدا عقيدة لا أعرف لك كيف تتخلص منها فى يسر وسهولة ...

قلت له رويدك . العرب كل والمصريون جزء فليس من اللازم أن يكون العرب مصريين . وليس ما يمنع من أن يكون المصريون عربا ... بل هم عرب — ان جاز أن يكون هناك جنس خالص لم تَشُبْهُ شائبة صلاته بغيره ...

قال هذه نغمة جديدة لست أدرى كيف تستطيع أن تضبط ايقاعها على الاسماع .

قلت سترى . وستروقك حين تقتحم آذانك لتصل الى قلبك فاذا أنت مؤمن بعروبتك ايمانك بمصريتك .

قال : كان الله فى عونك .

قلت ... كان الله فى عوننا جميعا ... كان الله فى عون هذه الدولة العربية المتحدة التى تربصت بها حكومات الأهل والأصدقاء فشاء ربك الا أن يرد كيدهم الى نحورهم فاذا هم صرعى والعاقبة للمتقين .

* * *

وتركته لشأنه وأخذت أسائل نفسى

أأنت عربى حقا ؟ لو أن العرب هم الذين نعنيهم بثمرة الغزوة التى تمت على يد عمرو بن العاص فان دماءك لم تمتزج بدماء عربية فأنت مسيحى قبطى مسيحى مصرى ... والعرب حين دخلوا الى مصر غيروا من دينها وغيروا من لغتها واعتنقت غالبية أهل البلاد الاسلام واتخذوه دينا من بعد النصرانية ثم غدت اللغة العربية لسانهم جميعا من أسلم منهم ومن بقى على دينه ... وواحد من أسلافك لم يرتبط بصلة نسب بهذه المجموعة من العرب فأنت بهذه الصفة لست عربيا ...

وسرعان ما اسعفنى منطق التاريخ ومنطق الواقع ومنطق الأحداث تقول جميعا ... ان قيام دولة العرب لا يحدد نشأة العرب بظهور الاسلام ، والعروبة ليست دينا ولكنها جنس وعنصر ، والعروبة كائنة قبل الاسلام كانت تشتمل الوثنى والنصرانى ... فلا غبار عليك فاستخر الله وأقدم ...

سادتى

فى الخامس من شهر مارس الحالى أعلن نص الدستور المؤقت وأذيع فى احتفال شعبى بقصر الضيافة بدمشق الشام ، وجاء فى المادة الأولى منه :

" الدولة العربية المتحدة جمهورية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة وشعبها جزء من الأمة العربية " .

وجاء بالمادة الثانية :

" الجنسية فى الدولة العربية المتحدة يحددها القانون ، ويتمتع بجنسية الدولة العربية المتحدة كل من يحمل الجنسية السورية أو المصرية أو يستحق أيا منها بموجب القوانين والأحكام السارية فى سورية ومصر عند العمل بهذا الدستور " .

فمن هم العرب ؟ وما هى مصر ؟ وما هى سورية اللتان تكونان اليوم نواة الجمهورية العربية المتحدة ؟

* * *

ان أقدم ذكر لكلمة " عرب " جاء فى عهد الملك الأشورى شيلمنصر الثالث فى أخبار حروبه فى بلاد الشام فى موقعة القرقار عام ٨٥٣ ق.م .

وقد تردد ذكر الكلمة بعد ذلك فى المصادر المسمارية ويقصد بالعرب فى هذه المصادر سكان بادية الشام ونعنى بها البادية الشمالية للجزيرة العربية .

وقد وردت الكلمة فى صيغ تشير رغم اختلافها أحيانا الى اشتقاقها من مادة واحدة .

ووردت الكلمة مضافا اليها ياء النسب فى نقوش « دارا » وتنطق عربايا Arabaya وتشير الى سكان البوادى مما يدل على أنها صفة مشتقة من البادية أو الصحراء .

ويرجح أن كلمة "عرب" مأخوذة من مادة "عرب" بمعنى أمحل أو أجدب وهو فعل قليل الاستعمال فى كثير من اللغات السامية ، وقد استعملت صيغة عرابة أو عربة العبرانية اسما للأرض المقفرة التى تمتد الى النهاية الشمالية الشرقية من البحر الأحمر .

وجملة القول أن كلمة عرب أطلقت منذ القرن التاسع قبل الميلاد واضطرد استعمالها واتسع حتى أصبحت علما على سكان الجزيرة ، ثم استعملت الكلمة بعد الهجرة الكبرى منذ الفتح الاسلامى فاشتملت فى معناها معظم أقطار الشرق الأدنى وصارت تحمل فى مفهومها النواحى الثقافية والحضارية بالاضافة الى مفهومها القومى والعنصرى .

هذا عن كلمة عرب ...

أما "مصر" فكلمة تعنى فى اللغات السامية "الحد" أطلقها الأشوريون كذلك على تلك البقعة المباركة من الأرض التى نعيش عليها ، وأطلقت الشعوب السامية من بعد الأشوريين ... من أراميين وعبرانيين وعرب على أهلها اسم مصريين ... وأما أسلافنا قبل غزوة أشور لمصر فكانوا يطلقون عليها اسم "كمت" ويعنون بها الأرض السوداء مفرقين بذلك بينها وبين الأرض الحمراء أى الصحراء التى كانوا يسمونها " دشرت " .

* * *

وأما سورية فكلمة يونانية محورة من أصل سامى قديم ، وقد وردت كلمة Shryn فى النصوص التى عثر عليها فى أوغاريت (راس شمرة) والتى ترجع الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

وقد أطلقت كلمة "سريون" فى المصادر العبرانية على أقليم لبنان الداخلى ثم أطلقت على بلاد الشام جميعا .

وقد سمى البابليون اقليما فى الفرات الأعلى باسم "سو — رى" و "سر — رى" .

واستعملت كلمة سورية منذ العهد اليونانى كما قدمنا وكانت تعنى بلاد الشام جميعا . أما كلمة الشام فهى تسمية عربية للاقليم كله وتعنى اليسار أو الشمال بالمقابلة مع اليمن التى تعنى اليمين أو الجنوب وذلك بالنسبة الى أهل الحجاز ... كما نقول اليد اليمنى واليد الشومى .

* * *

وتعد الجزيرة العربية مهد الجنس السامى ومرباه تدفق أهلوه موجة اثر موجة فى هجرات متتابعة حين تهددهم الجفاف والجدب بالموت جوعا فى صحراواتهم المترامية الأطراف .

وتبدأ هذه الهجرات فى نهاية العصر الجليدى الرابع منذ حوالى خمس وعشرين الف عام وذلك حين أخذت موجة الجليد الرابعة تنجاب عن سطح الأرض وأخذ الجفاف يحل بالمناطق التى كانت تعج من قبل بالحياة وتزخر بالغابات الكثيفة فاذا هى من بعد تتحول الى صحارى تقاسى من قلة المطر وندرته ... وكانت حالات الجدب تثور كالبركان وتقذف بأمواج شديدة البأس من القبائل يهيمون على وجوههم يلتمسون الحياة فى المناطق الخصبة التى تقع عند وديان الأنهار ... الى الشمال الشرقى والى الشمال والى الشمال الغربى والى الغرب ... الى وادى الرافدين والى سورية والى وادى النيل عبر البحر الأحمر أو عن طريق سيناء ، وأخذت هذه الهجرات تتخذ صورة شبه منتظمة منذ الألف الرابع قبل الميلاد بقدر ما استطاعت البحوث الأثرية أن تحدد وأخذت تطغى على الشرق الأدنى منذ منتصف الالف الرابع فأثرت فيه ... وأما فى الشرق فى وادى الرافدين فكانت أول الدول التى أنشأها الساميون هى الدولة الأكدية أسسها سرجون الأكدى حوالى ٢٤٠٠ ق.م . وتفرد الساميون بالزعامة السياسية على الشرق الأدنى منذ بداية الألف التالى أى بعد زوال سلالة أور الثانية التى كانت آخر دولة للسومريين .

ومن الجزيرة العربية نزحت هجرات أخرى الى الشمال ... الى الشام واستطاعت أن تنشئ دولا ذات شأن لها ثقافات تميزها ... ولسنا نستطيع هنا أن نلتزم الحدود السياسية الحالية فهى حدود مصطنعة لا هى تمثل مراكز الثقافات القديمة وسعة انتشارها ولا هى تشير الى مدى ما كان بينها من صلات وروابط ... لم يحدث فى التاريخ القديم أن فرق بين ما نعرفه اليوم بلبنان وفلسطين والأردن وسورية .. كلها كانت الشام وكلها تعنى فى نظر جمهرة المؤرخين اقليما واحدا ليس من الميسور قسمته وليس فى المقدور تجزئته ... وهو الاقليم الذى يتوسط القارات الثلاثة فى العالم القديم ، والذى يتوسط حضارتين أخذ منهما حين حملتا مشعل الحضارة وأعطاهما حين استطاع أن يستكمل مقوماته الحضارية ... وهما حضارة وادى الرافدين شرقا ووادى النيل جنوبا .

ولعل أخطر المؤثرات التى صنعت تاريخ هذا الاقليم وطبعته بطابع خاص مركزه الجغرافى الممتاز حيث كان محطا لهجرات البدو الساميين منذ أقدم العهود ولئن وصف بأنه البوتقة التى انصهرت فيها الثقافات التى تجاوره من جانبيه فأنه كان كذلك البوتقة التى انصهرت فيها الحضارة والبداوة ... وكانت حصته من موجات الساميين أكثر من غيره حيث تعرض لخمس هجرات منها على الأقل حتى غدا مهدا للهجرات السامية الفرعية الى نواحى الشرق الأدنى القديم .

* * *

كانت الموجة الأولى من الموجات السامية على بلاد الشام موجة العموريين الذين تقدموا الى ناحية الفرات الأوسط فى منتصف الألف الثالث وكونوا هناك دولا مركزها شمال سورية ووسطها . والكلمة السومرية للعموريين هى مارتو وتعنى الغرب ... وبلاد عامور اسم آخر لسورية أى الغرب ... وقد بلغت دولتهم ذروة سلطانها السياسى فى النصف الأول من الألف الثانى .

وقدمت موجة ثانية عرفت باسم الكنعانيين استوطنت السواحل السورية وتأثرت بمصر أكثر مما تأثرت موجة العموريين الذين بدا أثر وادى

الرافدين عليهم واضحا ... وكانت كلمة كنعان تطلق أصلا على الساحل والقسم الغربى من فلسطين ثم عم استعمالها فشملت قسما كبيرا من سورية وفلسطين جميعا كذلك ... ولم يتح للكنعانيين تأسيس دولة كبيرة وان نشأت اتحادات بين مدنها المختلفة حين كانت تهددها الأخطار .

أما الجماعة الثالثة من جماعات الهجرات السامية الى الشام فكانوا الأراميون الذين استوطنوا الفرات الأوسط منذ منتصف الألف الثانى قبل الميلاد وخرج منهم فرع تغلغل فى وادى الفرات الأسفل وعرف باسم كلدو ، وكانت أشهر الجهات التى استقروا فيها الفرات الأوسط خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ثم أخذوا يضغطون على العموريين والحوريين والحيثيين ويحلون محلهم ... وصدتهم جبال لبنان عن التقدم الى أبعد من ذلك ... أما الكنعانيون فقد ظلوا فى مواطنهم لا يؤثر فيهم هذا الضغط الجديد ، ثم نازعهم الأشوريون وحاربوهم وانتقل النزاع الى بلاد الشام حيث أسس الأراميون دويلات مثل دمشق وحماه وحلب قاست من جراء ضغط الأشوريين مما عاق قيام دولة كبرى من الاراميين . وكان من أهم الممالك الارامية دمشق التى تعرف باسم أرام دمشق وجاءت فى النصوص المصرية أحيانا تحت اسم ترمسكى محرفة من دار — ميشيق (حصن أو قلعة ميشيق) وجاءت فى نصوص العمارنة دِمُشقا كما وردت تحت اسم تِمَشجى ، وأسست فى أواخر القرن الحادى عشر قبل الميلاد وقت ظهور الملكية عند العبرانيين وظهرت أكبر من غيرها من الدويلات الأرامية وامتدت شرقا الى الفرات واليرموك وجنوبا على حساب العبرانيين وتاخمت الدولة الأشورية من الشمال ودخلت تحت سلطانها سورية الداخلية الى الشرق من لبنان وكذا سورية الشمالية وحوران حوالى الألف الأول قبل الميلاد .

أما الموجة السامية الرابعة فقد ظهرت على شكل هجرات ثلاثة أولاها مع الهكسوس وثانيتها مع الأراميين والثالثة بعد ذلك بقرن من الزمان ، وجاءت مع هذه الموجة قبائل أخرى من المؤابيين الذين استوطنوا فلسطين

وشرق الأردن ، ومن القبائل السامية الوافدة كذلك فى هذه المرحلة أو فى أعقابها النبط وغيرهم ممن أعقبوهم كاللخميين والمناذرة فى العراق والغساسنة فى الشام .

وأما خامس الهجرات الكبرى وآخرها فهى هجرة القبائل العربية والفتح الاسلامى للهلال الخصيب ، وهى هجرة لم تكن دوافعها كدوافع الهجرات السابقة ، وهى الهجرة التى طردت الفرس الساسانين والرومان ودكت عروش اباطرتهم ونشرت الدين الاسلامى وشادت أسس الحضارة الاسلامية العربية .

* * *

هذا عن سورية ... عن الشام ... سامية عربية كما رأيتم غذتها الجزيرة بقبائلها التى وفدت اليها حين أضر بها الجوع والقحط فى أغلب الأمر فتقبلتها حفية بها وصهرتها فى بوتقتها جيلا بعد جيل وكونت من هذه العناصر جنسا من أصل واحد وان اختلفت فروعه .

* * *

أما مصر فلها شأن لا يبعد عن ذلك كثيرا ...

استقرت الطبقة الأولى من سكانها على ضفتى النهر حين حل الجفاف بالهضبة وكانوا أصلا حاميين قادمين من نواحى الصومال أو من البربر الوافدين من الصحراء الليبية ، ومنذ عهد قبيل التاريخ طرأ تغيير جوهرى بسبب نزول القبائل السامية القادمة من الشرق أو من الجنوب الشرقى وامتزجت هذه الأجناس جميعا كما سنرى وخرجت مصر بأهلها من حياة الصيد الى حياة الزراعة التى تتطلب التعاون والتماسك ...

وليست قصة التسرب من الجزيرة العربية أقل قدما من قصة التسرب الى أرض الشام بل هى ان لم تكن معاصرة لها أقدم منها على الأرجح ، ويحدثنا عنها هنا القصص الدينى كما تشير اليها المخلفات الأثرية :

قدمت فى عصر الحضارة الأولى موجة من الجنوب الشرقى عن طريق وادى الحمامات كان أصحابها يعبدون حوريس ، وسار المهاجرون الجدد على طول الوادى شمالا حتى استقروا فى غرب الدلتا ، وظلوا دهرا يسالمون السكان الأصليين الحاميين المنتشرين على طول الحد الغربى من البحر المتوسط الى النوبة ، ولكن موجات أخرى بدأت تتقدم وتدخل البلاد عن طريق شرق الدلتا وكان أصحابها متفوقين من ناحية الأسلحة النحاسية التى يحملونها ويعرفون بأصحاب الرمح ، وقد استقروا فى الدلتا كلها فطردوا السكان الأصليين الذين كانوا يتبعون ست ويتخذون منه اماما وزعيما وإلها ... طردوهم الى الجنوب وهنا بدأت التفرقة بين الدلتا والصعيد ؛ وبعد أن غدت الصدارة لحوريس قدمت هجرة أخرى من الأراضى المجاورة لآسيا الغربية تحت قيادة أوزيريس واستقروا فى شرق الدلتا ... ولم يكونوا رجال حرب بل رعاة مسالمين اعتزموا الاستقرار ثم اندمجوا فى أهل البلاد الذين رأوا فى أوزيريس الإله صورة الأخ لإلههم ست ، وكان القسم الشمالى من الدلتا مفضلا لدى أوزيريس وقومه ، وكانت صاحبته ايزيس السمنودية التى اتخذ منها أوزيريس زوجا له .

وجاءت فى نفس الوقت مجموعة أخرى من المهاجرين ... اخترقت الدلتا واستقرت عند رأسها فى هليوبوليس (ايون) وهم قوم العمود المعروفون بالايونتيو جاءوا من جزائر البحر المتوسط أو من الشواطئ الشمالية الشرقية وما وراءها وكان على رأسهم رع وكانوا على جانب كبير من الثقافة والفهم ومعظمهم من التجار وأصحاب الحرف وقد ارتبطوا بروابط الود مع اتباع اوزيريس وحوريس ثم ست .

ووجد اتباع حوريس أمورا مشتركة بينهم وبين أوزيريس واتباعه فهما معا مجموعتان جاءتا من غرب أسيا وساعد على تحول الثقافة العربية وبدء ما يسمى بالحضارة الثانية لعصر ما قبل الاسرات فى وادى النيل عامة وغرب الدلتا خاصة هذه الروابط المشتركة من ناحية واسهام اوزيريس اسهاما سلميا فعالا وثقافة رع وذكاؤه . وسرعان ما تطورت قيادة

حوريس ووسائل اوزيريس السلمية وثقافة رع المرهفة الى وحدة الدلتا فتكونت مملكة مصر السفلى بفضل النشاط الحربى لحوريس كملك حقيقى عاصمته بوتو (ابطو — تل الفراعين) ومع ذلك فقد كان طابع السلام الذى يميز اوزيريس طابعا تبشيريا وسرعان ما جد أعوانه فى التوغل حتى وصلوا الى ابيدوس واستطاع هو بذلك أن يكسب ملكا يصل ما بين الدلتا وابيدوس فى أعالى الصعيد مما يضع تحت ناظرنا صورة لأول اتحاد بين الدلتا والصعيد أو الجانب الأكبر من الصعيد على الأقل .

وأغضب ذلك ست وأعوانه سكان البلاد الأصليين ولم يكن اوزيريس رجل حرب فتراجع الى موطنه فى الدلتا — بوزيريس — حيث تمكن منه أعداؤه وذبحوه ، ولكن أتباعه اعتقدوا بأنه بعث ليحكم العالم السفلى ... وأثار ذلك حوريس ، وكان قائدا وكان ملكا على مصر السفلى وكان عليه أن ينتقم لأبيه فنشب صراع جديد بينه وبين ست استطاع أن يتغلب فى نهايته ويغزو الصعيد ويدفع بأعوان ست الى أعلى النهر ثم الى الواحات والصحارى .. وهكذا تم التوحيد الثانى للدلتا والصعيد .

وظل لواء الحكم معقودا لحوريس وأتباعه من بعده حتى قدم وافدون جدد من الشرق كذلك شقوا طريقهم للدلتا يحملون أفكارا جديدة ... ولم يكن رع يعنى كثيرا بالصعيد أو بأعمال حوريس بل كان فى نفسه ميل الى ست وحدث صراع جديد بين الدلتا والصعيد وظل أتباع حوريس ثابتين على العهد مرتبطين به — وكان معظمهم من الجنوبيين — ثم استعرت الحرب وغدت العداوة مكشوفة بين الجنوب والشمال حتى كتبت الغلبة فى آخر الأمر للجنوب تحت لواء واحد من أتباع حوريس هو منى الذى أعاد للبلاد وحدتها وهى الوحدة المعروفة بالتوحيد الثالث وهو التوحيد الذى كان من أثره ان ثبت أتباع حوريس أنفسهم على عرش مصر العليا والسفلى وأصبحوا ملوكا جعلوا من حوريس الها ملكيا حتى نهاية العصور الفرعونية .

* * *

ولئن ترجمنا هذا القصص الدينى الى مفهومه الحقيقى لوجدنا أن الآلهة كانوا فى أول أمرهم زعماء تحولوا الى أبطال أساطير فآلهة وان مصر

كان يسكنها عنصر حامى استقر على الضفة الغربية نازلا من الصحراء الغربية بعد أن حل الجفاف بالهضبة وبدأ يتحول من حياة الصيد الى الزراعة ... ثم أخذت الهجرات من الشرق تتسرب على هيئة موجات متتابعة يمتزج أصحابها بسكان البلاد الأصليين ثم يغلبونهم على أمرهم ويدفعونهم الى الفرار الى أعلى الصعيد أو الى الهروب الى الواحات أو الى الصعود الى أعلى النهر .

ويبدأ جنس سامى جديد فى الاستقرار وارساء قواعد الحضارة ، وتشير المصادر جميعا الى المسارب التى دخلت عن طريقها هذه الجماعات الى الدلتا والصعيد فبعضها عبر البحر الأحمر من الشرق الى وادى الحمامات وشق طريقه شمالا ، والبعض الآخر جاء عن طريق سيناء والفريق الثالث جاء من الشمال الشرقى من جزر البحر أو من سورية .

انها الجزيرة العربية مرة أخرى أيها السادة — مصدر هذه الموجات جميعا التى انفجرت لا من الالف الرابع فقط بل أن آخر موجة سامية كبرى كانت فى الالف الرابع على الأرجح .

فنحن عرب ... مصريون عرب ... وسوريون عرب ... كلنا عرب بحكم التاريخ العتيق ... بحكم تاريخ ما قبل التاريخ ... نحن عرب منذ عمر هذا الوادى واستقرت به الحياة بعد الهجرات المستمرة ... والتاريخ طفل لا يزال فى المهد ...

فما حكم تاريخ العصور التاريخية ... ما حكم التاريخ القديم ؟

حاول ملوك التوحيد الثالث فى عهد الأسرتين الأولى والثانية الفرعونيتين أن يثبتوا أنفسهم على العرش الحوريسى ، وجهدوا فى تنظيم البلاد فى الداخل وعكفوا على العمل لرفعة هذا الوطن الذى هدته من قبل التفرقة والانقسام ، ولكن الأمور لم تكن سهلة ميسرة ، ذلك لأن اتباع ست نشطوا مرة أخرى فقام صراع جديد كاد يعرض وحدة البلاد للضياع ولكن الأمر انتهى لحسن الحظ بالغلبة لأعوان حوريس فى نهاية هذا العهد الذى استغرق أربعة قرون من عمر البلاد .

وقد عرفت مصر خلال هذا العهد بخاصة الطريق الى الشواطئ السورية كما عرفته الى بلاد پونت ، وبدأ التبادل التجارى يتخذ صفة الاستمرار وكانت مصر تستورد من فينيقية – من شواطئ سورية – خشب الأرز الفاخر الذى يستخدم فى مختلف الأغراض وخاصة الدينية منها ، كما تستورد من الجنوب التوابل والبخور وغيرها من منتجات پونت ... وكان ينقل التجارة الشمالية بحارة فينيقيون يبادلونها بسلع مصرية ... ومن المعروف أن الثقافة تنتقل مع التجارة وهكذا بدأ بحارة فينيقيا منذ هذه المرحلة من التاريخ يحملون ذلك العبء حتى لتعد فينيقيا شاطئ سورية حامل مشعل الحضارة الانسانية الذى سار بها من مصر الى اثينا التى أشعت من أثينا الى روما ومنها الى العالم المتحضر الذى ينعم اليوم بثمارها بعد أن جحد فضل من ورثوه اياها كما يجحد اليافع المتحلل فضل أسلافه الذين ورثوه ما ورث بكدحهم الطويل .

* * *

ولت أيام الدولة القديمة فلم تلبث البلاد أن مرت بمحنة وتعرضت لغزوة جديدة قضت على الأمن الداخلى أو شجع عليها اضطراب الأمن فى الداخل وكانت الهجرة الجديدة من شرق الوادى يرى بعض المؤرخين أن أصحابها نزحوا من شمال سورية الشرقى وسيطروا على شمال البلاد ومدوا سلطانهم على بعض الأقاليم فى مصر الوسطى ... ويرى فريق آخر من المؤرخين أن أصحاب الغزوة من العرب أصحاب البادية الذين يستمرئون ظل الحضر ولكنهم لا يألفون الاقامة فيه الا بمقدار ، ولم تترك هذه المرحلة من التاريخ من آثار على الأرض غير ما كان من توافه الأمر أو سقط المتاع ... ومهما يكن من شئ فانها تمتاز بطابع غريب ينزع الى الشرق ويميل فى اتجاهاته ونواحيه الى فنون سورية وما تكاد أيامها تنتهى حتى تحتضن مصر ذلك الطابع وتضمنه أصول حضارتها العتيدة .

* * *

ولم تلبث مصر أن اقيلت من عثرتها على يد ابن من أبنائها من الصعيد وسعت تسترد مكانها الأول الذى عرفته لها دنيا الحضارة من قبل فجاءت

قامت فى أعقاب ذلك دولة نعرفها باسم الدولة القديمة ... استمر حكمها كذلك حوالى أربعة قرون أخرى ... وتشتمل العصر المعروف بعصر بناة لأهرام ثبتت الدولة خلاله نظم الحكم والادارة والتوحيد وتجلى الرخاء والثراء فى مختلف نواحي الحياة وكان ذلك ثمرة جهود داخلية ونشاط مستمر عاد بالخير على البلاد وطبع حضارتها بطابع خاص يميزها ، وبلغت قوة الخلق والابداع القمة وشارف النظام الذروة حتى لتنم الأعمال التى تمت خلاله عن قوة وعظمة تأسران اللب وتتجلى هذه الروح الخالقة المبدعة فى سائر نواحي النشاط .

أخذت مصر خلال ذلك العصر تعنى بالمناجم وكانت الرحلات الى سيناء متتابعة تستهدف استخراج النحاس والفيروز والدهنج ، وتقدم لنا بعض نصوص الأسرة السادسة اسم واحد من كبار الموظفين يدعى اونى كان يشغل وظيفة ناظر الخاصة لأكثر من ملك من ملوك الأسرة ، وضاق واحد منهم مما تتعرض له بعثات المناجم من اعتداءات من البدو الرحل ومن سلب لمتاعهم ومن تحرش بالمصريين حين يلقونهم من وراء هذا الوادى فأوفده لتأديبهم وقد نجح اونى فى مهمته وقاد الجيش خمس مرات الى هذه النواحي من سيناء ولكن واحدة من هذه الحملات التأديبية تستحق الالتفات — وهى آخر الحملات — ذلك لأنه علم أن أولئك الرحل كانوا لا يزالون على شئ من النشاط فى منطقة أنف الرئم (جنوب الكرمل) "فعبر البحر بالمراكب" على حد تعبيره، ونزل الى الشاطئ فى آخر تلال تلك الأراضى الجبلية فى شمال أرض البدو ، وبينما كان نصف الجيش فى الطريق البرى — كما يقول — أتى هو وجمعهم الى بعضهم وقضى على تكتلاتهم ... كانت هذه أول حملة فى التاريخ تتعاون فيها القوات البرية والبحرية معا ... وكانت أول حملة فى التاريخ استعملت فيها طريقة الكماشة للاحاطة بالعدو ... ولكن الخطر فى الأمر هنا هو أنه نزل بالحملة البحرية عند جنوب الكرمل فى جنوب فلسطين ومن المفهوم أن قائدا بحريا لا يستطيع أن ينزل الى أرض معادية والبحر وراءه ... بل ان العون الذى لقيه فى جنوب فلسطين يشير الى ود وتعاون كانا قائمين بين سكان هذه النواحي وبين مصر وأن الشعبين استهدفا التعاون للقضاء على شراذم عصابات اللصوص التى تهدد بعثات التعدين هناك .

أيام الدولة الوسطى فى أوائل الألف الثانى قبل الميلاد تبشر بعصر جديد استغرق قرابة القرنين خرجت مصر خلالها من عزلتها النسبية وبدأت تعزز اتصالها بجيرانها الأقربين وتدعم ما كان قائما بينها وبينهم من قبل من صلات ود وجوار ... وانا لنرى فى أخريات أيام أول فرعون من فراعين الدولة الوسطى مثلا قويا لهذه الروابط ... ذلك أنه حين جاء النبأ لولى العهد منذرا بموت أبيه استمع الى النبأ عن طريق المصادفة أحد أفراد الأسرة ويدعى سنوهى وفر هاربا لينجو بجلده مما قد يصيبه بعد أن فقد العون والنصير ... وقد خلف لنا ذلك الأمير قصته ويروى فيها ظروف هربه ثم هجرته الى فلسطين فجبيل حيث أمضى عاما ونصف عام ثم استقراره فى نهاية الأمر فى هذه النواحى وهو يشير الى ما لقى من رعاية وما تمتع به من جميل عشرة وحسن جوار كما يشير الى أنه أصهر الى أحد شيوخهم ...

وهناك من فترة مقاربة نصوص وصور سجلتها احدى مقابر بنى حسن وهى مقبرة خنوم حتب الثانى من عصر سنوسرت الثانى وتشير الى هجرة قام بها الساميون الى مصر وكان عدد أفراد القبيلة سبعة وثلاثين تحت قيادة " ابشا " وتمثلهم الصور على جدران المقبرة يقدمون هداياهم الى صاحب المقبرة مما يشير الى قيام علاقات ود ومما يؤكد أن الطريق كان مفتوحا لتحركات الشعبين ولقى الجميع ما يلقى الطارق من كرم اللقيا وحسن الضيافة ... ويلاحظ فى هذه الجماعة انها مكونة من رجال ونساء يصحبهم طفلان وان الرجال يحملون حرابا وأقواسا ، وللنساء شعور سوداء وينتعلن أحذية ... وللرجال لحى ، ووجوههم سامية ويميزهم الأنف السامى ... والكل يلبسون ملابس صوفية زاهية ويحمل رئيسهم لقب حق أى الأمير ...

ورغم العلاقات الطيبة فى هذه المرحلة بين مصر وسورية فان الضاربين فى الصحراء بين البلدين ظلوا على حالهم يندفعون الى الشمال كما يندفعون الى الغرب كلما أضر بهم شظف العيش ولم يكونوا مسالمين دائما مما دفع مصر الى أن تجدد بناء حائط الحدود لتنظيم المرور الى داخل البلاد ولتكف

عن مصر أذى غزوة جامحة ذاقت منذ قليل أثار التخريب التي نجمت عن مثيلة لها والتي قد تدفع بعض هؤلاء الى تقويض بنيان الحضارة ، ومصر حريصة على سلامته وتدعيمه .

وتشير مختلف النصوص الى أن الصلات توطدت بين مصر وجبيل أشهر مدن الشاطئ السورى فى ذلك العصر . وقد عثر فى جبيل على نقوش وكتابات هيروغليفية تتضمن ذكر اسم صاحب لقب مصرى كبير مما يشير الى وجود سفارة لمصر هناك يغلب على الظن أنها كانت تستهدف رعاية الشئون التجارية بين البلدين . وليس من شك أن تأثير جبيل كان واضحا طوال عهد الدولة الوسطى ، ولسنا نستبعد أن بعض المصريين كانوا يقيمون فى بعض نواحى سورية يتجرون أزمانا تختلف طولا وقصرا وخصوصا مع بعض مدائن الساحل الفينيقى ، ففى حديث سنوهى ما يشير الى كثرة تردد المصريين على البلاد السورية ، وظواهر الأمور كلها تدل على أن العلاقات بين مصر وسورية كانت على أحسن ما نستطيع أن نتخيل من ود وصفاء .

* * *

ولكن أيام الدولة الوسطى لم تطل ... لم تزد عن القرنين الا ببضع سنوات فتحت بعدها أبواب الفتنة مرة أخرى على مصاريعها حتى قل من أصحاب القوة من استطاع أن يتجنبها ولم يشارك فيها ، واضطربت الأحوال وتعقدت الأمور ، وسادت الفوضى وعم الفساد ومهد ذلك لمحنة جديدة فاذا بأفواج الهكسوس وجيوشهم تتدفق على البلاد من شرق الدلتا ... وهم جماعات اختلف المؤرخون فى أصلهم وفى الجهة التى قدموا منها فمن قائل إنهم من بطون القبائل السامية المنتشرة فى فلسطين وفى ربوع سورية وبلاد الجزيرة العربية نزحوا الى مصر بسبب ما أصاب وديانهم من جدب وقحط وجفاف . ومن قائل إنهم هاجروا من الأقطار السورية حينما ضاقت عليهم أرضها بسبب ما حل بهم من ظلم حكام ميتانى من ناحية وبسبب ضغط

المهاجرين الآرين من ناحية أخرى ... ومهما يكن من أمر فقد كان الهكسوس أصحاب غزو وغارة يجيدون صنعة الحرب ويستخدمون الحصان يجرون به عجلاتهم الحربية ... وهم لم يكونوا شعبا واحدا وان كانوا فى أغلب الأمر خليطا من ساميين وآريين ، ولعل أحداث العهد لا تبين الا اذا قاربنا ما بينها وبين أحداث آسيا المعاصرة التى تشير الى أن دولة بابل فى سوريا الكنعانية قضى عليها عنصر هندواوربى أتى من أواسط آسيا فى أوائل القرن العشرين قبل الميلاد ... وأسس ملك من ذلك العنصر امبراطورية مدت سلطانها من حلب والاسكندرونة الى البحر الاسود ، وقام واحد من خلفائه هو مورسيل الأول فى عام ١٨٠٦ ق.م . بحملة استطاع عن طريقها أن يدخل حلب ويخرب المدينة ويتقدم بعد ذلك نحو بابل فيحتلها وينهبها ... ثم تنهار قوى الحيثيين فجأة لأمر لا ندريه ولا تعاودهم الا بعد ثلاثة قرون ... وقد تأثرت بابل من هذه الصدمة المفاجئة حتى خضعت بعد ذلك لغزوة من الكاسيين الذين استطاعوا أن يحكموها مدى خمسمائة عام .. وكان من أثر انهيار الحيثيين أن طردوا من حلب ومن ميزوپوتاميا العليا ... طردهم منها جنس تسميه النصوص الحيثية بالحوريت ويسميهم المصريون ميتانيين ... وهم يمثلون فرعا من الجنس الهندواوربى ... وقد دفع الميتانيون خلال انهيار الحيثيين بهجمات على بابل وأشور ثم على حلب وقادش ، وبلغوا فى منتصف القرن السابع عشر ذروة مجدهم فامتد سلطانهم على اقليم بين الفرات والعاصى ووقعت تحت ظلاله سورية حتى كنعان .

كانت الهجمات التى تعرضت لها سورية اذن هجمات هندواوربية عرف أصحابها الأولون باسم الحيثيين الذين كانوا يسكنون مرتفعات الأناضول ثم تغلبت عليهم بعد ذلك قلة هندواوربية عرفت بالميتانيين تأثرت بلغة المحكومين وثقافتهم ... وأما فى بابل فاستقر من الهندواوربيين الكاسيون وأثر العنصر الهندواوربى واضح فى معبوداتهم .

والهندواوربيون لم يكونوا جنسا واحدا بل هم عبارة من مجاميع كانت تجوب على الأغلب الاقليم الواقع الى شرق وشمال بحر قزوين

وفى أواسط آسيا وقد حدث خلال الألف الرابع امتزاج بينهم وبين شعوب الهضبة الايرانية ، وحوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. وصلوا الى وحدة ثقافية وفى خلال الألف الثالث استعاروا بعض عناصر الزراعة من سكان القرى الفلاحين فى تركستان وجنوب روسيا وأخذوا مبادئ التعدين من السومريين وظلوا مع ذلك رعاة وقد استخدموا الحصان فى الحرب كما عرفوا الثيران للحمل والجر والحرث .

وانا لنرى أنه فى منتصف الألف الثانى أخذت شعوب هندواوربية جديدة تثير العاصفة فى وجه الامبراطورية الحيثية والامبراطورية المينووية فاندفعت قبائل سامية جديدة الى الهلال الخصيب ... وكان من أثر الموجات المتتالية للحيثيين والكاسيين والحوريين المتيانيين التى تدفقت على ميزوبوتاميا وسورية الشمالية ان أخذ السكان يهربون أمام وحشيتهم وبربريتهم وأخذوا هم يطاردونهم فكان ذلك سببا فى هجرة جديدة مختلطة الى مصر ... وهكذا كانت هجمة الهكسوس الجديدة لا تعنى جنسا واحدا بل خليطا من مجاميع قدمت أصلا من هضاب آسيا الصغرى وجذبت معها الساميين الكنعانيين ... واقتحم الغزاة الجدد حواجز الدلتا ومكثوا بمصر قرابة قرنين من الزمان ولم يستطيعوا أن يتوغلوا الى داخل البلاد ... وبعد أن ولى عنصر المفاجأة استطاع المصريون أن يقاوموا وان يقفوا فى وجوههم وان يطردوهم ثم طاردوهم الى حيث تحصنوا فى شاروهين فى جنوبى فلسطين واستمر حصار المصريين لهم هناك ثلاث سنوات غلبوهم من بعدها فأفنوهم أو شردوهم .

* * *

كانت يقظة مصر فى عصر الأسرة السابعة عشرة بداية عهد جديد ... قام المصريون يدا واحدة يردون الشر عن بلادهم ويدفعون المحتل الغاصب الى ما وراء الحدود ويسعون لتخليص الوطن من الذل والرق ويستردون لأنفسهم حق الحياة الحرة .

وقد اضطربت فلول الهكسوس بعد موقعة شاروهين فى بقاع الشرق القريب يضربون بين أقاليمه المختلفة ابتغاء الفتنة ، وأحسوا صدى دعوتهم عند أوليائهم فأخذوا يأتمرون بمصر ويتربصون بأهلها الدوائر وامتدت أبصارهم اليها مرة أخرى يبغون الاعتداء عليها بمعونة هؤلاء الهكسوس وقدر فرعون مصر امنحتب الأول الخطر وأعد له عدته فمهدت جهوده لذلك الفتح الأكبر الذى تم على يد خلفه تحتمس الأول عند ما اندفع بجيوشه الى الشرق لأنه أدرك أن حدود الدولة يجب أن تصل الى انحناءة الفرات عند قرقميش واستطاع أن يوفق للوصول الى أهدافه بمعونة السوريين الذين كانوا يحسون بالمؤامرات من حولهم تلك المؤامرات التى تحاك خيوطها بمعونة فلول الهكسوس وأقربائهم فى ميزوپوتاميا العليا (أعالى الفرات) من ناحية وفى بلاد الأناضول حيث يقبع الحيثيون من ناحية أخرى ، فلما كانت أيام تحتمس الثالث وحمل على أقاليم الشرق حملاته المعروفة أشار الى أن سلفه قد بلغ منعرج الفرات عند هذه الناحية ...

أيها السادة

ماأشبه اليوم بالبارحة ! لم تعد سيناء تجدى كحد طبيعى للدولة الجديدة مادامت تتعرض لهذه الغارات البربرية المفاجئة ومادامت تتاخم دولة الحيثيين فى الشمال تتهددها الأخطار من ناحيتها ... ودولة الميتانيين من الشرق ... وأحس امراء سورية الخطر المشترك فجمعوا قواهم وآلوا على أنفسهم أن يطهروا صفوفهم من الخونة وأن يضعوا أيديهم فى يد مصر ليدفعوا جميعا هذه الأخطار المتلاحقة التى تهدد اقطارهم ... وكانت حملات تحتمس الثالث المتلاحقة تستهدف تأمين هذه الحدود الجديدة وتنظيم البيت فى الداخل ... والواقع أن الطبيعة لم تهيئ ذلك الجزء من أرض الشرق — تُغَلِّقُه الصحراء من الجنوب والشرق — إلى تكوين دولة كبرى وانما انتشرت فوق أرضه حكومات صغيرة ، وجعلت منه الطبيعة مسرحا لألعاب المغيرين من اصحاب المطامع السياسية فكانت أرض الشام تتعرض لوفود المغيرين من أهل الدول التى نشأت فى حوض النهرين بينما ظل جنوبها بما فيه شواطئ لبنان على اتصا

وطيد بمصر ... وهكذا ظلت هذه البقاع عرضة لشر المغيرين وهجماتهم ... يصيبها من الجنوب والشرق على أيدى الساميين من بدو الصحراء الرحل ومن الشمال على أيدى الشعوب التى سكنت مرتفعات اقليم آسيا الصغرى .

وقعت أقاليم الشام قبل أن تقع مصر تحت سلطان الهكسوس فلما كسر المصريون شوكة الهكسوس انقسمت البقاع السورية واقاليم فلسطين الى اقاليم صغيرة يحكمها أمراء منهم من يرجع بأصله إلى الآريين ومنهم من ينتسب إلى بطون القبائل السامية وتعد رسائل العمارنة أكثر من ستين أمارة منها وتعد حوليات تحتمس الثالث ستة وعشرين ومائة بقعة ووجد الأمراء انفسهم بين مصر وبابل ودولة الحيثيين التى تثير الفتنة بين الحكام وتضرب بعضهم ببعض وتستثير ضعاف النفوس منهم ضد مصر حليفتهم الطبيعية ولكن سورية عرفت كيف تفيد من شر الاستعمار ومن خير التجارة فنهضت اقاليمها نهضة قوية وآية ذلك أنها آوت كثيرا من عناصر ذلك التراث المترف من حضارة البابليين وحمت آثاره من الزوال واسهمت فى تقديم الغذاء الفكرى والروحى لأجيال الانسانية المتعاقبة .

وكانت الصلة بين سورية ومصر من قبل قوية متصلة منظمة فى آن واحد وكانت هذه الصلة بالغة الأثر فى الحياة الاقتصادية والسياسية والعقلية والدينية معا واشتدت الصلة أيام الهكسوس ثم رسخت عقب طردهم من مصر وكانت الظروف الدولية تساعد على ذلك ... فالدولة البابلية التى بلغت قمة مجدها فى نهاية الألف الثالثة قبل المسيح اجتاحها العيلاميون عام ١٧٦٠ ق. م. ، والأشوريون الذين ورثوا حضارة بابل اصبحوا يكونون أمة قوية ... ، وقامت دولة الميتانيين — وحكامها من أصل آرى — إلى غرب اشور ؛ وكان المصريون يسمونها نهرين وتقع عند أعالى الفرات وتمد حدودها إلى نهر البليخ غربا وارمنيا شرقا ... ، وكانت دولة الحيثيين فى قلب آسيا الصغرى

قد بلغت قوتها عام ٢٠٠٠ ق. م. وأخذت ترنو بأنظارها إلى شمال سوريا والى بابل وادركها الانحلال عند بداية الالف الثانية ثم أقيلت من عثرتها حوالى عام ١٥٠٠ ق. م. فنهضت نهضة قوية .

* * *

كان لابد أن تحدد الأوضاع بين هذه القوى فى الشرق الأدنى واستطاع الفراعنة وأحلافهم من أمراء سورية أن يوقفوا مؤامرات الحيثيين وأن يقضوا على الخونة من أعوانهم فى البلاد وأن يجعلوا من مصر وسورية بلدا يذود عن نفسه شر الطامعين الزاحفين من الشمال والشرق .

وقد لقى الفراعنة العنت فى سبيل تحقيق ذلك الأمر ... واضطرتهم الظروف كارهين الى أعمال السيف واراقة الدماء ورغم ذلك فقد كللت الجهود باتمام الوحدة التى طوت مصر وفلسطين والشام وبلاد النهرين واقاليم النوبة والسودان وواحات الصحراء الليبية تحت راية واحدة وقويت الروابط الاجتماعية بين هذه البلاد جميعا وفتحت مصر دور العلم فيها تستقبل الوافدين مرحبة بهم للدرس والتحصيل وعقدت روابط النسب بين فراعين مصر وملوك بابل واشور . وأخذ البلاط المصرى يعج بالسوريين الذين بلغ واحد منهم فى عهد امنحتب الرابع «اخناتون» منصبا من أهم مناصب الدولة .

وكان للدولة الجديدة عاصمة على الساحل الفينيقى هى سيميريه وأخرى فى الجنوب عند عنيبة تدار منهما شئون الدولة الى جانب العاصمة الرسمية طيبة وفى عهد اخناتون جعل لمعبوده مركزين رئيسيين يعبد فيهما الواحد فى سورية والآخر فى النوبة كذلك بالاضافة الى اختاتون التى اتخذ منها عاصمة دينية وسياسية معا .

وتشير كتب العمارنة الى المؤامرات التى دأب الحيثيون على تدبيرها لاشعال الثورات فى الاقاليم السورية ، وقد وجدوا لسوء الحظ من استجاب لهم ورضخ لسلطان الاغراء ، وأما اصدقاء مصر فقد تنبهوا للخطر ونبهوا فرعون له ، واتخذت مصر فى نهاية الأمر خطوة حاسمة استطاعت عن طريقها أن تقضى على الشر وتؤدب الخونة .

ولقد كانت حضارة سورية مماثلة للحضارة المصرية – ان لم تكن اسمى منها فى بعض النواحى . ودليلنا على ذلك أنه لم يكن يظهر فى مصر قبل ذلك العهد زى عسكرى ولكننا منذ بداية الاتصال نشهد دروعا تمثل صورها على جدران المقابر ... ولم تكن هناك عجلات مذهبة فى مصر من قبل ولكننا منذ ذلك العهد نلتقى فى مختلف النصوص بقوائم سجلت فيها اعداد ضخمة من العجلات الحربية المصفحة بالذهب والفضة ... ولقد كان ذلك ثراء فوق مستوى الثراء الذى عهده المصريون من قبل كما كان فنا جديدا عليهم ، بل اننا نستطيع أن نتلمس فى الكؤوس والأوانى من الذهب والفضة حضارة شعب فى مستوى الشعب المصرى ان لم ترتفع عنها . ولقد اتصلت مصر بأهداب هذه الحضارة اتصالا مباشرا تجلى اثره بفضل تردد الصناع والعمال ، وان الدقة التى تمتاز بها السجلات المصرية فى ذلك العهد تشير إلى جمال وفخامة المنتجات السورية وتشير كذلك الى وسائل الترغيب التى كانت تتبع لاستقدام الصناع . وقد كثر التزاوج بين المصريين والسوريات فى هذه الرحلة وكان لهذا أثره فى الدم المصرى بعد جيل أو جيلين فبعد أن كنا نرى صور افراد الطبقة العليا من المصريين تمثل وجوها جافة نلمس الآن تغييرا صارخا دخل عليها يشير الى الدم الجديد فنلتقى بملاحة وحلاوة ورقة محببة مما لم يكن معهودا من قبل ونرى ابتسامة فاتنة وانفا دقيقا قليل الاحديداب ونرى النعومة تحل محل الخشونة واللين يأخذ مكان القسوة وقد انتشر هذا اللون من الفتنة واضحا فى عهد امنحتب الثالث أكثر مما كان فى عهد اسلافه وكانت كل أم سورية تلقن أولادها بعض كلمات من لسانها الأصلى مما ادخل فى اللغة المصرية كلمات واصطلاحات وافكاراً سامية جديدة ... وكان لهذا الاتصال المباشر أثره فى الحياة العامة فى مصر فقد غير من الذوق المصرى والحياة المصرية حتى شمل الكتابة فرقت خطوط الهيراطيقية بعد أن كانت غليظة . كما ظهرت فى التماثيل مسحة جديدة من الرقة وقوة التعبير وبدأ المصرى يتخلى للمرة الأولى عن تقاليده الموروثة ويعب من ألوان هذه الحضارة الطريفة العريقة .. وتناول التغيير والتأثير فيما تناول العبادات القائمة فى مصر فدخلت آلهة جديدة فى مجاميع الآلهة المصرية وزاد الاتصال

واتضحت آثاره بفضل اقبال الأمراء السوريين على ارسال ابنائهم لدور العلم في مصر ليمزجوا بين الثقافتين وهكذا خرجت الى الوجود طبقة جديدة تفهم الروح المصرية وتستطيع أن تعاون في تدعيم الروابط بين القطرين .

ظلت الأمور تسير على هذا المنوال حتى اخريات ايام امنحتب الثالث الذي كان يستمتع بمركز ممتاز بين زملائه في العالم الشرقي :

كان لمصر مركز الصدارة بفضل تعاونها مع سورية وارتباطها بها وبفضل الثراء الذي كان يمتد الى نواحي الحياة فيها وتظهر آثاره على اصدقاء مصر واحلافها ... ولكن بابل كان يغطيها غبار التراخي ... اما اشور فكانت لاتزال في المهد لاترنو ابصارها الى اكثر من تعديل طفيف في محيط القوى الكبرى ... واما ميتاني فكانت في اوج مجدها وكان ملكها قد فرغ لتوه من اذلال اشور والغلبة عليها والاستيلاء على عاصمتها وكانت قد ارتبطت بمصر بروابط النسب ولكنها تخشى غائلة الانهيار وكان أمنحتب الثالث بهذه الصورة على رأس عالم يسوده السلام وتحتل مصر منه مركز الصدارة فهي محور التجارة للشرق الادنى وبحر ايجه ترد اليها اساطيل فينيقيا التجارية ومراكب المينوويين وقوافل بابل وافريقا الاستوائية وهي رابطة عقد هذه الأمم جميعا تربطها في تجارة دولية تنتهي الى مصر ... ولنا ان نتخيل هذا الركن من العالم القديم ماتكاد تزدهر في ركن من ارجائه صناعة او يقوم نشاط في أية ناحيه من نواحي الحياة المادية أو العقلية أو الروحية فيه حتى تتجاوب باقي الأرجاء بهذا النشاط الذي يسري فيها جميعا حتى يصبح عنصرا لازما لحياتها كذلك ، ولعل أشد ما كان يميز هذا العصر هو " الدولية " ذلك لأن ساكن مصر أو سورية أو كريت أو بابل كان يعد نفسه عضوا في جماعة الأمم التي تأخذ نصيبها من الحياة العامة لها جميعا .

وكان كل شيء يتوقف على جهود خليفة امنحتب الثالث... كان رجلا عظيما من غير شك ولكن في ناحية واحدة فقط : شغل بدينه عن دولته حتى أطمع فيها الطامعين ... كانت كل القوى التي تتواطأ ضد مصر وسياستها تكاد تتركز في الرأس التي تتآمر في بوغازكوي عاصمة الحيثيين في الأناضول ... فهو

عنكبوت يستقر فى نسيجه الذى تمتد خيوطه الى بلاد بعيدة يجتذب اليه ضحايا من مختلف الاجناس بينما يقبع فى مركزه يكاد يحس كل اهتزازة ويستهدف من ورائها تغييرا سياسيا ... كان يعرف قوته ويقدر ان الدنيا لابد مقبلة عليه ، وكان صبورا واسع الحيلة ... أخذ يدفع بعض الاقاليم السورية للثورة ونجح فى ذلك نجاحا ساعد عليه اهمال اخناتون وسياسته المسالمة ... واستغاث اصدقاء مصر بفرعون بعد أن احسوا وطأة الحيثيين ولكن فرعون لم يحرك ساكنا حتى قضى وجلس أحد قواد الجيش على العرش بعد حكمين قصيرين لملكين ضعيفين واستطاع ان يستعيد لمصر هيبتها ويحفظ لسورية كرامتها .

ولكن المعركة الكبرى كان لابد لها ان تتم ... وقد انتهت بعد حوالى نصف قرن بصلح بين الحيثيين ومصر عن طريق معاهدة فى عهد رعمسيس الثانى ضمن بها الطرفان السلم والتعاون ضد أى عدو آخر ... واستطاع الشرق ان يستمتع بفترة سلم متصل أتخم البلاد حتى استنامت الى الدعة فى الوقت الذى كان اعداؤها يقظين متربصين .

فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر قبل الميلاد عمت الاضطرابات جميع أمم شواطئ البحر الابيض المتوسط فتحركت من اوطانها تدفع بعضها البعض فى هجرات شاملة باحثة عن أوطان جديدة ، ويغلب على الظن ان موطن الخطر نشأ فى البلقان وتعرضت مصر كما تعرضت بلاد الحيثيين لاخطار هذه الهجرات الجديدة من شعوب البحر وارسلت مصر بالقمح الى بلاد الحيثيين وقضى مؤقتا على عناصر الاضطراب واوقف تيار الغزو الجديد فترة من الزمان .

ولكن فراعين مصر بعد رعمسيس الثالث كانوا ضعافا اهملوا شئون الدولة حتى تفككت مصر فى الداخل ، وعرفت سورية امر تغير الاحوال الداخلية وتعرضت هى فى الوقت نفسه لغارات التكاليين وأهالى كريت الذين زحفوا جنوبا مطاردين امامهم أهالى عامور حتى وصلوا الى فلسطين وتمكن التكاليون من تكوين دولة مستقلة فى ناحية دور جنوبى الكرمل ، وأخذت

هجرات الكريتيين تتوالى وأخذوا يتاهبون لسحق الاسرائليين كما فعلوا من قبل بأهل عامور وبذا انقطعت الصلة مؤقتا بين مصر وسورية فى الوقت الذى اخذت قبائل اسرائيل تجمع كلمتها وتحاول ان تجد مكانا لها فى فلسطين تحت حكم شاؤل وداود ثم سليمان الذى دخلت تحت حكمه لأول مرة فى الميدان التجارى فحرمت مصر من مواد التجارة العربية وساعد على ذلك انضمام حيرام الصورى اليه واتفاقهما على تبادل الفائض ... اغضب هذا الوضع الجديد فرعون مصر ششنق ووجد فى سورية حليفا يستطيع أن يحطم به اسرائيل وافاد من الخلاف الداخلى فى اسرائيل وتشير التوراة الى" انه فى السنة الخامسة للملك رحبعام صعد ششنق ملك مصر الى اورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك" وتشير النصوص المصرية الى ان ششنق تحرك على رأس جيشة فى عام ٩٢٦ ق.م. وتقدم نحو اليهودية وتغلغل شمالا حتى وصل الى اسوار اورشليم واسقطها وانه عاد الى مصر منتصرا يحمل معه الجزية التى سجلت تفصيلاتها على جدران الكرنك .... بهذه الصورة عاد لمصر بعض مجدها القديم .

ولكنها سقطت فى ايدى النوبيين فترة من الزمن ... وكانت اشور تتربص الدوائر بمصر وسورية بل انها كادت تنقض عليهما معا قبيل الغزو النوبى لولا نزاع داخلى أخر امر توغل الاشوريين .

واستقرت الامور فى اشور لأسرحدون ، واستعد لغزو مصر ليستريح من نصرتها المستمرة لسورية وليأمن تدخلها فى شئون مستعمراته بآسيا الغربية ووصل أسرحدون الى الحدود المصرية فى عام ٦٧٤ ق.م والتقى بجيش من مصر يقوده طهرق النوبى واستطاع الجيش المصرى ان يصد أسرحدون ، ولم تفت الهزيمة من عضد الاشوريين بل استعد أسرحدون مرة اخرى لغزو مصر . اما طهرق فقد اطمأن قليلا واعتقد ان اشور صرفت النظر نهائيا عن غزو مصر وساعده على ذلك انضمام حلف من الأمراء السوريين وعلى رأسهم الملك بعل صاحب صور الى مصر ضد اشور .

ولكن اسر حدون لم يلبث أن ظهر بعد أربع سنوات (حوالى ٦٧٠ ق.م) وانزل العقوبة بعل جزاء انضمامه لمصر ثم سارع الى مصر مخترقا طريقا قصيرا فى الصحراء دله عليه بعض الخونة من البدو بعد أن كافأهم بسخاء على تأجير جمالهم لحمل العتاد الحربى ومياه الشرب للجيش الأشورى ....

ومنيت مصر بالهزيمة وسقطت الدلتا فى يد الأشوريين ثم تقدم الأشوريون من بعدها الى منف ، وأطمأنوا الى هذا الوضع مُكتفين بجزية الصعيد ، وكانت أشور على كثير من الغلظة والفظاظة ولم تحاول التعرف الى الحضارة المصرية أو احترام التقاليد ولم تكترث بمعبودات المصريين وتعسفت وأمعنت فى الظلم والاستبداد مما أجج الثورة فى النفوس ودفع امراء الصعيد الى أن يتكتلوا ويتحدوا مع طهرق ومع امراء الدلتا وجاءت الأنباء الى أسر حدون بذلك وهو فى أشور فاسرع بجيشه الى مصر ولكنه مات فى الطريق . وعين خلفه أشور بانيبال أحد قواده على رأس جيش أمره بمتابعة الهجوم على مصر ، وكتب النصر مرة اخرى لأشور وان ظل الصعيد يستمتع باستقلال ذاتى . ولم يلبث المصريون أن ثاروا وحاولوا التخلص من المستعمر الأشورى ومن زحف نوبى جديد على الجنوب ، وكان نيكاو الأمير المصرى يتزعم حركة تطهير مصر من المستعمرين ولكنه قتل فى المعركة عند منف أما ابنه پسمتك ففر الى سورية والتحمت جيوش النوبة بجيوش أشور عند منف عام ٦٦١ وتقدم الأشوريون حتى طيبة فخربوا معابدها وسلبوا مقتنياتها . . . وكان المصريون يجمعون قواهم وأستطاعوا تحت قيادة پسمتك أن يخلصوا مصر فى نهاية الأمر من سلطان أشور وحاولوا أن يخلصوا سوريا وفلسطين ولكن سوريا وفلسطين لم تكونا قد سلمتا من ضربة القدر التى اجتاحت امبراطورية أشور وبدأ أصحابها يتلقون ضربات السيثيين وجهدت مصر فى مد يد العون ولكنها لم تستطع أن تنقذ سوى فلسطين وأما سوريا فلم تحرر إلا فى عهد خلفه نيكاو الثانى وبذا عاد لسورية ومصر استقلالهما مرة اخرى واسهم بحارة فينيقيا فى عمليات الكشف الجغرافى بالدوران حول القارة الأفريقية وأما الجيوش المصرية فظلت تتقدم حتى الفرات دون

أن تلقى مقاومة لأن أشور كانت تحتضر ، وبذا عادت لمصر وسورية بعض أمجادهما السابقة لولا ظهور بابل فى الميدان وقضاؤها على أشور مما استدعى وقوع معركة جديدة فى قرقميش كان من أثرها هزيمة المصريين وسقوط سورية فريسة للغزو الجديد . وعاود نيكاو محاولة اضرام نيران الثورة فى سورية وفلسطين ضد بنوخذ نصر وحين ولى واح ايب رع عرش مصر كان نبوخذ نصر مشغولا بأطماعه فى ميديا وكانت فينيقيا قلقة وكان الحكم الكلدانى نيرا ثقيلا على الأعناق .... وكانت صور وصيدا قد استطاعتا الفكاك منه ، وكانت موءاب وادوم ترفضان دفع الجزية ... وازداد الموقف حرجا بسقوط اليهودية بين يدى نبوخذ نصر . . . . . وتحرك واح ايب رع الى فلسطين مستهدفا فك الحصار المضروب حول اورشليم ، وأساءت صور فهم هدف تحركات الجيش المصرى والاسطول المصرى فكانت حجر عثرة فى سبيل التقدم لرفع الحصار عن بيت المقدس فسقطت عاصمة يهوذا سنة ٥٨٦ ق. م. ودمرت المدينة واقتيد أهلها للسبى ...

ولم تلبث الدائرة ان دارت على بابل فسقطت ثمرة ناضجة فى يد قوة جديدة هى قوة فارس ، واحست مصر أن دورها آت وقد تم ذلك فى عهد قمبيز . وهكذا سقط شرق البحر المتوسط بأكمله فى يد الفرس .

ولكن لم تلبث الثورة أن عمت الأقاليم التى تحكمها فارس جميعا شغلت بها فينيقيا وشجعها على ذلك المقاومة التى كللت بالنجاح على يد نقطانب الملك المصرى من ملوك الأسرة الثلاثين ، وكذا العداوة التى أظهرتها أسبرطه والمضايقات التى سببها السوريون .

وإنا لنرى فى هذه الرحلة من التاريخ وحدة شاملة تجمع كل الاقاليم من مصر الى ليكيا بما فى ذلك فينيقيا وسورية وكيليكيا وپامفيليا وپيسيديا تتآلف جميعا لتنزع عن عاتقها نير فارس ، وأسهمت أسبرطة فى ذلك المضمار بجيش أرسلته الى مصر تحت أمرة اجسلاوس وكان خبرياس الاثينى

يقود الاسطول ، وتقدم چدحر الفرعون المصرى خليفة نقطانب الأول بجيش نحو فلسطين ليحتل المواقع التى ينزل بها الفرس ولكن الخيانة دبت فى صفوف الجيش وخشى هو على مصيره فلجأ الى عدوته فارس . . . . ومات ارتجزركسس بعد ذلك بقليل (عام ٣٥٨ ق م) . ويظهر أن خلفه الضعيف اوخوس قنع بالاحتفاظ بفينيقيا ما دامت مصر قد نجحت فى استعادة استقلالها رغم محاولاته ... واستجابت مصر لنداء الثورة التى قامت فى صيدا ضد قواد اوخوس (ارتخشاشا الثالث) ذلك أن الفينيقيين عقدوا اجتماعا فى طرابلس عام ٣٥٢ ق . م أعلنوا فيه عدم خضوعهم لفارس فجهز أوخوس أسطولا وسارت مصر تمد يد العون للثوار ، وتلقى ملك صيدا من نقطانب الثانى مددا من السفن الحربية وبها أربعة آلاف من المتطوعين ، ونهجت قبرص نهج فينيقيا فأعلنت الثورة ضد فارس كذلك ....

وأحست فارس أن الآمر كاد يفلت من يدها فجندت جيشا ضخما واستطاعت عن طريق الخونة أن تتقدم فتحاصر الصيدونيين واستعملت أعنف وسائل القسوة ضد الصوريين الذين انتحروا حرقا حتى ظلت قسوة فارس وصمة لا تمحى سرعان ما لقيت عنها سوء الجزاء ، ذلك أنه بعد اندحار الجيش الفارسى فى موقعة أيسوس قرب خليج الأسكندرونة تقدم الاسكندر المقدونى جنوبا ليؤمن سيطرته على البحر فغزا فينيقيا وأرسل قواده الى دمشق ، وقاومت صور ثم استسلمت بعد حصار دام سبعة شهور ، أما غزة فقد أقسم حاكمها الاسود باتيس أن يموت دون التفريط فيها وقد جرح الاسكندر خلال حصارها وكاد يموت ولكن المدينة سقطت فى نهاية الأمر ودمرت وبيع أهلها عبيدا .... ودخل الشتاء قبل أن يتمكن الاسكندر من شق طريقه الى مصر ... ومر بپلوزيوم فى شهر ديسمبر ووصل الى منف بعد أيام قليلة ... واستسلمت مصر وأصبحت سورية ومصر جزءا من امبراطورية الاسكندر .

وبعد موت الاسكندر قسمت امبراطوريته فكانت مصر من نصيب بطلميوس وأما سورية وفلسطين فالحقتا فى أول الأمر باسيا الصغرى ..... وبعد معارك بين سلوكس وبطلميوس من ناحية وبين صاحب آسيا الصغرى من ناحية أخرى الحقت فلسطين سنة ٣١٢ ق. م. بمصر. واستعاد سلوكس فى العام نفسه بابل.

وبعد معركة أخرى عام ٣٠١ق. م. أخذ سلوكس الجزء الشرقى من آسيا الصغرى وجميع سورية من الفرات الى البحر المتوسط، وابتنى فى سورية مدينة انطاكية وسماها باسم أبيه انطيوخس وجعل منها مركزا للحكم السلوقى فى سورية، ويعد عام ٣١٢ ق. م. بداية العهد السلوقى (أو العهد اليونانى فى الشام) وتأسيس المملكة السلوقية فى سورية وقد لقب السلوقيون أنفسهم بلقب ملوك سورية كما لقب البطالمة أنفسهم فى مصر بالقاب الفراعنة ...

ولم يمر حكم السلوقيين على البلاد دون متاعب بل تعددت الثورات ضده واستغلت دويلات عربية (نبطية) فى سورية الفرصة للاستقلال، وظهرت حوالى عام ١٣٩ ق.م. سلالة عربية حكمت فى أديسا (الرها)، ونشأت أخرى فى حمص لم تتبع السلوقيين إلا اسماً، ونشأت ثالثة فى سورية البقاع ...

وكون الأنباط العرب الذين سبق أن طردوا الأدوميين من البتراء سنة ٣١٢ ق.م. مملكة قوية واستطاعوا أن يضموا جميع سورية البقاع حوالى عام ٨٥ ق. م. بما فى ذلك دمشق.

وبعد حروب مرهقة طويلة بين الرومان والأرمن والسلوقيين استطاعت روما فى عام ٦٤ ق.م. أن تسيطر على البلاد السورية فى عهد بومبي ودخلت سورية تحت الحكم الرومانى ووضعت تحت حكم مباشر لوال رومانى خول سلطات واسعة هو جابنيوس وأعقبه كراسوس الذى كان عضواً فى الحكم الثلاثى الأول فى روما وقد جعل من سورية مركزاً لعملياته الحربية ضد الفرثيين ولكنه هزم على أيديهم عام ٥٣ ق.م. وخلفه كاسيوس الذى استطاع أن يتغلب عليهم عام ٥١ ق.م. وأعقب ذلك عهد اضطراب بسبب الحروب الأهلية والنزاع بين بومبي وقيصر.

ثم صارت سورية ومصر معاً من نصيب أنطونيوس مدى أربعة أعوام (٤٠ – ٣٦ ق.م.) وانتهز الفرثيون فرصة ركونه إلى الدعة فضموا سورية إلى امبراطوريتهم ، وبعد موقعة اكتيوم وانتصار اكتافيوس عاد الحكم الروماني إلى سورية وتوج اكتافيوس بعد أربعة أعوام امبراطوراً تحت اسم أوغسطس .

وخلال القرن الأول من الحكم الإمبراطوري في روما استطاعت سورية أن تستعيد ازدهارها الاجتماعي والاقتصادي حتى غدت بلاد الشام ولاية هامة في امبراطورية ضخمة ونشأت هناك مدرسة للفلسفة كانت تشتمل – كالاسكندرية – العناصر اليونانية والشرقية ، وحاولت أن تغلف الدين بالفلسفة ؛ ويشير سترابو الى جماعة من معاصريه المبرزين ظهروا في صور وصيدا مثل فيلو من جبيل وتلميذه هرميبوس من بيروت ويورفري الملقب مالخوس من أبوين صوريين رغم أنه ولد في باتانيا في شرق الأردن . وأصبحت بيروت مركزاً لدراسة القانون وظلت مدى ثلاثة قرون تخرج المشرعين لشرق الامبراطورية . أما مارينوس الصوري الذي كان يعيش في الجزء الأول من القرن الثاني الميلادي فكان أول مؤلف وضع الخرائط متبعاً في ذلك خطوط الطول والعرض المبينة على أساس حسابي ولابد أن خرائطه – كخرائط بطلميوس – اعتمدت على سجلات الرحلات والأسفار التي ترجمت فيها المسافات الى خطوط عرض وطول ومن الطبيعي أن تقدم فينيقيا هذا التراث وهي زعيمة الملاحة والتجارة في الشرق .

ظلت بلاد الشام مركزاً عسكرياً هاماً للرومان حتى استطاع أحد القواد فيها أن يعتمد على جنده في عام ٦٩ م. في تنصيبه امبراطوراً ، وكانت أنطاكية العاصمة تعد ثالث مدن الامبراطورية (بعد روما والاسكندرية) وكانت تنافسها اللاذقية الشهيرة بكرومها وخمورها . أما حمص فاستطاعت في هذه المرحلة أن تحتفظ بحكم ذاتي كما حافظت عليه كذلك دمشق وتدمر واديسا (الرها) ، ومنذ عهد هدريان بدأت دمشق تتخذ أهمية خاصة بين غيرها من المدن السورية .

وقد ظهرت المسيحية فى الجزء الجنوبى من سورية فى فلسطين ولقيت فى أول الأمر اضطهاداً وعنفاً فى المقاومة حتى عام ٣٢٤ حين اعترف بها ديانة رسمية بعد أن غدا تيار انتشارها أقوى من الاضطهاد .

ومنذ عام ٢٠١ استقرت الأمور لـ Severus فجند الصوريين فى الكتيبة الثالثة التى كانت قد استقرت فى سورية وفينيقيا منذ زمن بعيد وسرعان ماعادت صور الى الازدهار حتى لنرى St. Jerome يشير اليها كأجمل مدن فينيقيا وكمركز للتجارة العالمية .

أما مصر فقد ظل الأمر فيها بعد احتلال الرومان لها كما كان فى عهد البطالمة ، وان استبدل الموظفون اليونانيون الذين يشغلون الوظائف الكبرى بموظفين من الرومان .

وكانت روما تعتمد على مصر فى تجهيزها بالحبوب حتى غدت تعرف كأنما هى مزرعة حبوب لروما ، ولذا عنى أباطرة الرومان بضبط الأمور وصيانة الأمن حتى لاتحدث مجاعة فى روما .

وأخذ الحكم العسكرى يضيق الخناق على الأهلين وأخذ الرومان يقربون إليهم الجاليات اليونانية ... وأخذت مصر تئن من الجور والعسف ومن انحطاط الأحوال عامة ... وكان الوضع يزداد سوءاً فى عهود الأباطرة الضعاف حيث تتعرض البلاد الى هجمات العدو وتخريبهم وعم فساد الادارة ولم تستنقذ البلاد الى فتح جديد هو الفتح العربى على يد عمرو بن العاص عام ٦٣٩ م. فى عهد الخليفة عمر وبدأ بذلك عهد جديد انطوت فيه الصحائف الأخيرة التى يميزها التدهور والانحطاط وانضمت مصر وسورية الى ركب الحضارة العربية الاسلامية وأسهمتا معاً فى بناء صرح تلك الحضارة الخالدة على الزمان وبدأتا معاً تخطان صفحة جديدة من سفر جديد يبشر بأضواء الفجر تتسلل بعد ظلام الليل الطويل .

تم بحمد الله ، طبع هذه المحاضرة ،
بمطبعة جامعة الاسكندرية في يوم الثلاثاء
١٢ من رمضان سنة ١٣٧٧ هجرية ،
الموافق أول أبريل سنة ١٩٥٨

علي محمد الهواري
مدير مطبعة جامعة الاسكندرية





(مطبعة جامعة الإسكندرية ٢٠٠٠/٥٧/١٥٥)